الفصل الأول

فكرة الإقليمية في دراسة الأدب

أ.د. محمد يونس(*)

رأى بعض النقاد أن للبيئات أثرها الواضح في الآداب على تنوع فنونها ، وكان الحماس في مصر لهذه الفكرة واضحا لدى لفيف من أساتذة الجامعة في الأربعينيات من القرن العشرين ، فألحوا في الدعوة إلى دراسة الأدب العربي في بيئاته المختلفة ، مثل مصر والشام والعراق والأندلس وإيران والحجاز واليمن والمغرب وغيرها ، كل بيئة منها على حدة ، ذلك أن لكل منها شخصيته المؤثرة فيما تضمه بين جنباتها من الكائنات المختلفة من الحيوانات والنباتات وفيما تطبع به الإنسان من سمات تخلقها الظروف الطبيعية والاجتماعية ، فتتجلى في نتاجه العلمي والأدبي ، ينضاف إلى ذلك أن لكل بيئة تاريخها وثقافتها وتراثها الضارب في أعماق الأزمان مما يعكس أثره على أنماط الحياة ويوجه السلوك ويحدد أساليب التعبير ، فالبيئة هي التي تصوغ كل شئ وتعطى الغذاء والماء والهواء ، والفنونُ الأدبية أكثر خضوعا لمؤثرات البيئة وعوامل التغاير .

وقد بدا أن هذه الدعوة كانت صدى لما ذهب إليه هيبوليت تين وغيره ممن تراءى لهم أن الخصائص الأدبية لأي بلد مرتبطة بعوامل المكان والزمان والجنس ، وأن هذه الثلاثة لها دورها الكبير في إظهار الأدب وتشكيله على الصورة التي يجرى وفقها .

ولاعتبارات وطنية ونفسية وفنية عظمت الدعوة إلى دراسة الأدب العربي في مصر ، وأن تفرد لهذه الدراسة المباحث التي تقتصر عليها دون ما سواها ، وكان هذا الرأي في حينه قمينا بأن يلقى القبول ، فمصر كما قال أمين الخولي : " تميزت بمميزات واضحة الفصل قوية التأثير في التحديد والتمييز من بحار وصحارى ، وبمقومات خاصة جعلتها وحدة مادية بارزة المعالم جلية الخصائص ماثلة الفوارق " ، والأهم من ذلك أن " الإسلام والعرب قد جاءا مصر على قديم من أمرها وماض من دولتها وسابق من فنها ومستقر من

(*) كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

حياتها ، فكان بين الإسلام والعرب في مصر ما يكون حين يلتقي كائنان ويتبادلان التأثير والتأثر ... " ودراسة مصر المسلمة إنما هي امتداد لمصر التي قبلها على اختلاف لغتهما واختلاف دينهما وتغاير فنهما ، لأن الشخصية هي الأصل الثابت والمدار المستمر لكل هذه التدرجات والانتقالات .

ويبدو أن هذا التوجّه إلى دراسة الأدب العربي على أساس أن لكل إقليم خصائصه وشخصيته المتفردة لم يصمد أمام الدراسة النقدية المنهجية العلمية ، فقد لحظ أن البيئات العربية تشابهت فيما أنتجت من أدب وأدباء وأن الأدب العربي جمعته وحدة عامة نظمته في خيوط مشتركة ، حجبت كثيرا من الخصائص الإقليمية التي يتفرد بها كل إقليم عن الآخر ، ولذلك جهر كثير من النقاد بالقول بأن التمايز افتراض نظري لا يعتمد على الحقائق المعروفة عن الأدب العربي منذ الجاهلية وارتباطه في جميع البلدان بتقاليد ومثل فنية متوارثة ، حتى أن القصيدة من القصائد قد تقرأ فيصعب معرفة منشئها أو المكان الذي قيلت فيه ، إلا إذا أشير إلى ذلك أو تضمنت القصيدة أعلاما جغرافية أو أحداثا تاريخية ، يؤيد ذلك أن بعض القدماء صنفوا مؤلفاتهم وفقا للأقاليم من مثل الثعالبي في " يتيمة الدهر " ، وابن بسام في "الذخيرة " ، والباخرزى في " دمية القصر " ، والحظيري في " زينة الدهر" ، وابن سعيد في " المغرب " ، وابن الخطيب في " الإحاطة " ،... وغيرهم كثير تملأ أسماؤهم صفحات ، ولكنهم لم يلحوا على فكرة التمايز ، ولم يتحمس أحد منهم للإقليمية فيما رووه من أعمال الأدباء ، ولم يستطع مصنف منهم أن يجزم بأن لبعض البلدان تفردا يجعلها تختلف عن غيرها اختلافا حاسمًا .

لذا صار من المسلم به أن الأدب العربي في مصر وفي غير مصر لا يمكن فهمه على أساس من هذه الفكرة الضيقة ، فقد جعل الإسلام الثقافة ذات أصول واحدة لا تفرقة فيها بين مشرقي ومغربي ، وكانت النماذج التي حاكاها الأدباء على مرّ العصور وعدوها أمثلتهم العليا هم هؤلاء الكتاب الأوائل من مثل ابن المقفع والجاحظ وابن العميد وبديع الزمان والحريري ... ، والشعراء من مثل بشار وأبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام والبحتري والمتنبي وأبى العلاء ... .

وليس معنى ذلك أن قانون البيئة خاطئ غير مقبول ، فلا ريب في أنه صحيح صادق ، ولكن تطبيقه على الأدب العربي يتطلب كثيرا من التروّى والحذر ، فقد وحّد الإسلام هذه الأقطار حين دخلها ، وهو في الوقت نفسه لم يمح القومية محوا تاما ، فكانت هناك سمات

إسلامية عامة تشترك فيها جميع البلدان كما كانت هناك سمات قومية خاصة يمكن أن نتلمسها في مصر أو في الشام أو في العراق أو في غيرها .

ويبقى القول بأن بعض الدارسين ذهب إلى أن الأدب العربي في العصور الوسيطة قد ابتلى بالعقم والعجز عن الإبداع ، فاتهمت بالضعف والانحطاط ، والحق أنه اتهام ظالم ، فليس الأمر أمر عقم أو عجز بقدر ما هو تمسّك بالجذور ، وحرص على ألا تذوب الثقافة العربية في ثقافة آخرين ، وشعور بأن المحافظة على هذه الثقافة ضرورة واجبة ، وتشبّث واع مستميت بالروح العربية حتى تظل جذوتها مشتعلة ذاكية ، وخاصة أمام المواجهات الطاحنة لغارات الصليبيين والتتار بالإضافة إلى ما كان من غارات شرسة للأسبان على أهل الأندلس .

obeikandl.com